الفلسفة الغربية المعاصرة

المحاضرة السادسة والسابعة

المستوى: ثالثة ليسانس

مدخل عام:

المقصود بالفلسفة الغربية المعاصرة ذلك الخطاب الفلسفي الذي امتد عبر كامل القرن العشرين ومازال إلى يومنا هذا، لكن هذا التحديد الزمني قد لا يعكس حقيقتها، أو مضمونها، أو حتى الإشكاليات التي واجتها، ومحاولة التعرف عليها وعلى مضامينها لا يمكن أن تبقى بدون صعوبات، والأسباب في ذلك كثيرة ومتنوعة.

أي محاولة يكون الغرض من ورائها الكشف عن مضمونها لا بد وأن تتم ضمن سياق يختاره القارئ أو يفرضه مؤرخ الفلسفة نفسه، هذا الجانب يرتبط بالخصائص التي تميز الفلسفة المعاصرة عن غيرها من الفلسفات، وعلى أساس هذه المعطيات الأولية تتبادر إلى الذهن عدة تساؤلات تشكل في عمومها الشبكة المعقدة التي تندرج في إطارها الإشكاليات الكبرى للفلسفة الغربية المعاصرة.

أسئلة لابد منها:

من جملة الأسئلة المتصلة بالفلسفة المعاصرة والتي تفرض نفسها على كل من يريد التعرف عليها جزئيا لأن التعرف على عموم تفاصيلها يبدو في نظر المختصين أمرا مستحيلا، التعرف على أهم الإشكاليات التي تفرض نفسها قبل غيرها،هي مسألة علاقة الفلسفة المعاصرة بالفلسفات التي سبقتها، سواء منها اليونانية أو القرن- وسطية أو الحديثة، وضمن هذه الإشكالية نجد جملة من الأسئلة التي في مجموعها أثرت الخطاب الفلسفي المعاصر.

الجانب الثاني الذي لابد من التوقف عنده يتمثل في الجديد الذي أتت به هذه الفلسفة سواء من ناحية المنهج أو من ناحية الموضوعات الأصيلة التي تطرقت إليها بحث لم تهتم بها الفلسفات السابقة، ومن هنا نقول: هل في ظل التطورات التي عرفتها مختلف العلوم (الطبيعية والإنسانية) ومع التحولات التقنية التي غيرت العلاقات بين الشعوب وبين الأفراد هل مازال دور الفلسفة كما كان في ظل الحداثة؟

وإذا كانت الإجابة على السؤال السابق بالإيجاب، حتما سنصدم بسؤال آخر لا يقل أهمية عن السابق وهو: هل الفلسفة المعاصرة هي امتداد لهذه الفلسفات أم أنها تشكل قطيعة معها الشيء الذي يجعلنا نقول بأنّ الفلسفة المعاصرة فلسفة أصيلة متفردة بموضوعات لم تكن على بساط البحث في الفكر القديم وولا في الفكر الحديث؟ وبصورة أخرى فم يكمن الجانب الإبداعي الأصيل الذي اهتم به الفلاسفة المعاصرون؟

لكن قبل التطرق إلى تلك التساؤلات لابد من الإشارة إلى عناصر مهمة تتمثل بالأساس في المميزات العامة التي ارتبطت بظهور الفلسفة المعاصرة.

المبحث الأول: التحولات الفكرية الكبرى وتأثيرها على الفلسفة المعاصرة:

- نهاية القرن التاسع عشر وظهور أزمات العلوم.
- ظهور العلوم الإنسانية.
- **المنعطف النقدي من خلال النموذج النتشوي .**

هذا فيلسوف استطاع أن يصبَّ في كلماته من الحياة ما لم يستطعه فيلسوف آخر.. فكانت عباراته عروقاً وشرايين تسري فيها الدماء، وأقباسا من اللهيب ينفخ فيها بكل ما أوتي من قوة لتزداد جذوتها اشتعالا فلا يصيبها انطفاء..[1]

- تنهيد:

يعتبر نتشه الفيلسوف الذي يقف بين زمنين، الزمان الأول آمنت فيه الفلسفة بمطلقية القيم وإمكانية الوصول إليها بإعمال العقل، وأما الزمن الثاني فلم يعشه نتشه لأنه توفي سنة 1900، لكنه بدون شك ساهم بشكل قوي في صناعته وإرساء قواعده ومنطلقاته النظرية، وفي هذا الأطار يقول جيل دولوز في كتابه "نيتشه والفلسفة" « إن الفلسفة الحديثة (المعاصرة) عاشت في جزء كبير منها، ومازالت تعيش على نيتشه»[2] وباختصار هو الفيلسوف الذي يتوسط الحداثة وصانع ما بعدها. ومن أهم ما تميزت به أوروبا رغم التقدم الذي عرفته على صعيد الفلسفة والعلم والصناعة وما قامت به بعض الدول من احتلال لمناطق كثيرة عبر العالم، فإن سيطرة الكنيسة ظلت قائمة ومعترف بها، ضمن هذه المعطيات يقم نتشة انتقادات لاذعة لكل القيم التي كانت تعتبرها أوروبا الكلاسيكية قيم عالمية يجب أن تنشر في كل المجتمعات، كالحرية والمساواة والديمقراطية.

وُلِد فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) في دير روكن في ساكسونيا(1844- 1900). بعد دراساته المتميزة، عُيّن أستاذًا لعلم فقه اللغة اليونانية (philologie classique) في جامعة بازل عام 1869. يكشف أول عمل رئيسي له (مولد المأساة)، عن تأثير لشوبنهاور؛ لم يُستقبل العمل بترحاب، بعد سنة 1878 أجبر المرض نيتشه على الاستقالة من الجامعة. في عام 1889، في تورينو، انفجر باكيًا حول رقبة حصانٍ هزمه سائقه للتو. لم يكتب سطرًا آخر، وقضى السنوات العشر الأخيرة من حياته يرتجل على البيانو ويغني.

- **أسلوب الكتابة عند نيتشه**

نشير لهذا الجانب نظرا للأهمية التي يكتسيها ومن خلالها يتبين لنا جانب إبداعي مهم تجلى من حيث أسلوب الكتابة عند نيتشه، يعرف بأنه كتب بطريقة غير معهودة، وكانت معظم مؤلفاته عبارة عن شذرات أو النبذات القصيرة التي تعبر عن الأقوال المأثورة، ويشير كارل ياسبرس إلى هذا الجانب مؤكدا على نيتشة ليس له تفكير منهجي منظم متناسق ولا يمكن تصنيف مؤلفاته ضمن مذهب فلسفي تقيدي[3] .

- **نيتشه ومشكلة القيم.**

[1] فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل بيروت، 1993- ص 184.
[2] جيل دولوز، نيتشه والفلسفة، تر حسين عجة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، بغداد، 2022، ص 9
[3] كارل ياسبرس، نيتشه مدخل لفهم فلسفته، تر عماد نبيل، دار إيميديا للترجمة للنشر، 2023، ص 21.

يقول نيتشه: « إن سؤال القيمة أهم من سؤال اليقين، لأن هطا الأخير لا يصبح جديا إلا إذا وجد سؤال االقيمة جوابا »[4] نتشه هو فيلسوف القيم في المقام الأول، وحتى نفهم معنى القيم عند نيتشة، لابد من وضعه في سياق فكري تجلى عند أكثر من فيلسوف أوروبي منذ أفلاطون وصولا إلى أستاذه شوبنهاور، هذا الجانب يتمثل في النظر إلى الوجود عموما والإنسان بصورة خاصة من منظور ما يسمى بـ (الحياة)، فعند هؤلاء الحياة ليست فقط ظاهرة بيولوجية متجلية في الكائنات الحية بمختلف مستوياتها، بل لها مدلول ومعنى آخرين، فهي اولا طاقة مستمرة تنساب إلى كنه الوجود بطريقة لايستطيع العقل إدراكها لأنها تتجاوزه، ولهذا فإن مفهوم الحياة عند نيتشه يقابل به العقل والنظام الصارم، فالطاقة الحيوية المتجلية في الإرادة، بالإضافة إلى تجلياتها في الكائنات الحية، تلك الطاقة عند الإنسان التي تسهم في الإبداعات الإنسانية ولا تعبر عن نفسها بلغة منتظمة فإنها توجد في كل الإبداعات الفنية الخالدة مثل ما هو الحال في موسيقى فاغنر(Wagner)، الحياة ليست حالة يكون عليها الفرد تنعكس في شعور بالسعادة أو التعاسة، فهي بالمعنى النيتشوي ذلك الشعور العارم الذي يحمل مأساة الإنسانية كما عاشتها تاريخيا، لهذا فهو يُعلي من شأن القيم الأصيلة التي تُحركها الحياة وإرادة القوة، فالأخلاق والميتافيزيقا والدين مبنية على نفي القيم الأصيلة. والخطوة الأولى هي إزالة الغموض عن المُثل التقليدية وإسقاط الثقافة الحديثة التي تتجلى فيها أعراض انحطاطها، مدفوعةً بـ"عدمية سلبية" متجذرة في المسيحية اليهودية. وبمجرد ترسيخ أصل الأخلاق، يعتقد نتشه أن جوهر الوجود يكمن في إرادة القوة.

وحول عرضه لفلسفة القيم الكل يتفق على أن نيتشه نقد القيم الدينية التي دافعت عنها الديانتان المسيحية واليهودية، هتان الديانتان في نظره كرسا ما يسميه هو بأخلاق العبيد، أي اخلاق الشفقة والرحمة التي لا ترقى إلى مستوى القيم الأصيلة، لأنها تدعو إلى الخضوع والاتباعية العمياء، فهي القيم التي يكرسها السادة من أجل زيادة إخضاع القطيع الذين يشكلون السواد الأعظم.

فما هي إذن القيم الأصيلة التي تدعو إليها فلسفة نيتشه الأخلاقية؟

ففي مقابل أخلاق العبيد توجد أخلاق السادة، أي الأخلاق التي تسعى إلى النهوض بالحياة وتزيدها قوة لتصل في النهاية إلى ما يسميه بـ الإنسان الأعلى أو السوبرمان، السوبرمان ليس بالإنسان "الطيب" بل هو إنسان قوي يسعى إلى المزيد من الحيوية، وقوته روحية نفسية الذي ينعزل عن القطيع ولا يشاركهم في ما يرونه مهما، كون المهم عنده هو الأرقى والأسمى مما يمجدون[5] .

وأكثر ما ثار ضده نيتشه هيو الحقد الذي يملأ الشعور الأخلاقي الموجود عند الضعفاء الذين يوجهون هذا الشعور" الحقد" ضد القوياءكلما أتيحت لهم الفرصة، اما الشخص النبيل فهو يترفع عن الحقد[6]

وعدمية نيتشه (Nihilisme) تظهر في هذا الجانب تحديدا، فهو يعارض الأخلاق الشائعة التي يتبناها الجميع، وينبذ التراث الأخلاقي التي دافعت عنه الحداثة الأوروبية، ولكنه بالمقابل يبني صرح أخلاق جديدة تختلف عن الآخلاق الاعتيادية، فهو بهدا يدافع عن أخلاق تتسم قيمها بالأزلية لأنها تمثل حقيقة

[4] نقلا عن Fragments posthumes XII, 7 [49], cité par C. Denat et P. Wotling, Dictionnaire Nietzsche, Paris, Ellipses, 2013, p. 271

[5] فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل بيروت، 1993، ص 189 .

[6] ن.م.س

الإنسان المستمدة من تاريخ البشرية، فهو لا ينكر الخير والشر، ولكنه يضعهما في مقام جديد غير المقام التقليدي المتعارف عليه[7].

فهو يرى فوق هذا كله أن مشاعرنا الأخلاقية زائفة ومنافقة؛ إنها مجرد نتيجة هروب من الحياة وثمرة استياء عميق. فالأخلاق تعبر عن مشاعر الضعفاء الذين تخيلوا قيمًا زائفة: الخير، والقانون، والإحسان، والمساواة الديمقراطية، والتي تجعل الأقوياء يشعرون بالذنب من خلال جعلهم يخجلون من قوتهم.

الخير والشر والعدل والظلم ما هي إلا تعبير عن استياء من لا يستطيعون إثبات ذواتهم إيجابيًا: فهم ينتقمون، ويعوضون ذلك بجعل الجوانب السلبية في حياتهم، ومعاناتهم، وإحباطاتهم، هي القاعدة. هذه أخلاقيات العبيد التي تسعى إلى تبرير انزعاجهم، وانحطاطهم، وضعفهم؛ فيصبح غياب القوى النفسية والتفاعلية فضائل وقيمًا إيجابية، بينما يخلق القوي، "السيد"، قيمه إيجابيًا. ولعكس هذا المنطق واستعادة الانسجام مع الواقع، والحياة الإبداعية، وبالتالي إرادة القوة، ابتكر نيتشه مصطلحا جديدا: العدمية.

هذا الحط من القيمة هو أيضًا حط من قيمة الجسد، الذي حط من قيمته أفلاطون ثم المسيحية. يُفهم الدين على أنه انتقام الضحايا من النشاط الصحي للقوي؛ تُكبت الغرائز الطبيعية وتُستوعب؛ فتتحول إلى استياء وكراهية لا يمكن نسيانهما .يُبرز النقد العنيف للمثال الزهدي التناقض بين أمان المعرفة ومغامرة الحياة المبهجة؛ فالعلم نفسه يُزيّف الواقع ويُحافظ على الوهم الذي يجعل الحياة محتملة، بينما يجعل الاستبصار الحياة شبه مستحيلة.

- **إرادة القوة**

مصطلح أساسي في فلسفة نتشه يحمل دلالتين متناقضتين، لأنها تلك القوة الهدّامة والإبداعية، التي تدفع كل كائن إلى إثراء نفسه من خلال إبداعات جديدة؛ وهي تنطبق على الإنسان، الذي يجد فيها قدرة ديناميكية خلاقة، تُبدع وتُعطي في آن واحد؛ ويمكنها، في شكل ثانٍ، أن تكون قوة وهيمنة؛ وفي هذه الحالة، يُطلق نتشه على "الاستياء" أو "الشعور بالملل" - الذي كثيرا ما يصيبنا ولا نعرف كيف نتجاوزه - تعبيرًا عن هذه الإرادة السلبية للقوة التي لا توجد إلا ضد ما يتجاوزها.

- **نظرية العود الأبدي**

يرى نيتشه أن فكرة العود الأبدي هبطت إليه على شكل وحي أو إلهام في أغسطس 1881 ، كما اعتبرها معتبر فكرة جديدة لكنها في حقيقة الأمر كانت موجودة عند الفيثاغرين في العهد اليوناني، والجدة عنده تمثلت في التناول العلمي لها، لكنه لا يعتبرها نظرية علمية، وهي تتعلق بالأخلاق رغم أنها توحي إلى الحركة الكونية. ومهما قيل حولها فإنها تنتسب أكثر إلى الحدس بالمعنى الذي هو عند برغسون، لذلك تعددت الشروح حولها.

ينظر نتشه إلى العالم كتدفقٍ يبني أشكالًا جديدة باستمرار، "بحرٌ من القوى في عاصفة"؛ يعود العالم إرادة القوة، دائمًا إلى نفس النقطة: إنّ عقيدة العودة الأبدية هي التي تُبرر الوجود الدائم. يُمثل ديونيسوس ."رمز الدافع الأساسي الذي يسعى دائمًا إلى "النمو والتوسع.

.كل شيء يخضع لعودة دورية لا نهائية للأحداث نفسها، وللكائنات نفسها

[7] م.م.س

على عكس كانط الذي اعتبر الإنسان غاية في ذاتها ضمن فلسته الأخلاقية فإنّ نتشه يعتبر الإنسان جسرا وليس غاية، وهذا يعني بدلا من الالتزام بالأخلاق يؤكد على ضرورة مهمة هي: أن علينا أن نكون مبدعين، ومربين، وزارعين للمستقبل، وأن نكون أقوياء.

وإذا كانت النظرة إلى تاريخ البشرية ضمن فلسفة الأنوار الأوروبية هي أن البشرية تتجه في تطورها نحو الأفضل والأحسن والأرقى ضمن تصور "التقدم"، وبالتالي يكون تاريخ البشرية محددا بغايات، فإن نيتشه نظر إلى تاريخ البشرية من منطلق نظرية العود الأبدي، التي مفادها أن أحداث التاريخ وما تحمله من مآسي تتكرر بصور مختلفة لكنها في جوهرها تعكش هذه العودة او هذه الرجعة الدائمة لما مضى وما فات.

نظرية العود الأبدي تقوم على ثلاثة مقومات يعتقد نيتشه أنها مستمدة من العلم وهي:

- القوة الكونية متناهية.
- الزمان لامتناهي.
- السببية العلمية.

إن القوى الكونية لا تستطيع في حدوثها إن تتكرر إلى ما لانهاية، فحالات التغير محدودة رغم كونها هائلة، وعليه فالتغير محدود، أما الزمان فهو على العكس مستمر التدفق إلى ما نهاية، وضمن هذه المعطيات يصبح فعل القوى الكونية حاصلا ضمن الزمان اللانهائي، وإلى جانب هذين المعطيين يضيف نيتشه عامل آخر هو السببية، وهكذا فلدينا من جهة محدودية القوى المتصارعة، ومن جهة اخرى فإن هذه القوى تحدث في لانهائية الزمان، فختما تكون الأحداث من جهتها قابلة للحدوث أكثر عدة مرات، وهنا يؤكد نيتشه على ضرورة العيش، فأن نعيش معناه أن نحيى الحياة بكل مما فيها لحظات سعيدة ومأساوية، ولا شيء يجعلنا